الخلفية الوطنية

في شعر ممدوح عدوان

امحمد برغوت

أستاذ باحث في الأدب الحديث المغرب

تنبع علاقة الشاعر ممدوح عدوان بالوطن من إيمانه الراسخ بالأرض، والأرض – عنده – ليست سهولا وتربة، ولا جبالا وأودية، بل هي ذاكرة الشعب، هي تاريخ و أمجاد. وتقوم قراءة هذه الخلفية/ الوطن في شعره على مستويين اثنين :

1/ قراءة أولى في الوطن، المشوه و المهزوم و المنزوع الهوية.

2/ قراءة ثانية في الوطن، الساكن في أعماق الشاعر، الوطن الحلم.

المستوى الأول :

إن قراءة هذا المستوى تجعلنا نتمثل الهم الوطني عند الشاعر، هذا الهم الذي يستمد مضمونه من الظروف السياسية التي عاشتها سورية إثر الاجتياح الإسرائيلي الذي كان من آثاره : احتلال الجولان و القنيطرة و أجزاء أخرى من الوطن. و هنا تصبح المدينة/ الوطن، المدينة / الأم، والمدينة / المرأة، رمزا للأوضاع السياسية التي تعم الوطن كله.

العلاقة بالمرأة الرمز / المدينة :

إلى جانب المعاناة لتجربة الحياة في المدينة، تلك المعاناة المحددة بالإطار الحضاري في مستواه الفكري الصرف، هناك وجه آخر من وجوه العلاقة بين الشاعر والمدينة، يجسم فيه ارتباطه العضوي بها باعتبارها جزءا لا يتجزأ من الوطن ككل.

وقد مرت سورية خلال العقود الأربعة الأخيرة بأحداث كثيرة ملأت حياة المدينة بالحركة، وغيرت من وجهها و ملامحها، فأتيح للشاعر بذلك نوع من الارتباط بها.

وقد عمد ممدوح عدوان إلى تشخيصه النسوي للمدينة في قصائد كثيرة، ويطالعنا هذا التشخيص في ديوانه الأول " الظل الأخضر " :

رأيتك أمس عابرة

و كنت غمامة بيضاء تغمرني

مررت ، و كنت ترتعشين
مثل نوافذ الأكواخ في المطر
لففت الغربة السوداء شالا باكيا
و مضيت بين الأهل و المحن
و غلفت البكاء ببسمة صفراء
كالمدن . (1)

يجسد ممدوح عدوان في شخص المرأة هنا : مدينة القنيطرة، ومن خلالها الوطن بأجمعه، وصورة القنيطرة هنا صورة المسبية، الغربية، الخائفة الحزينة الباكية :

عبرت .. و كنت ناعمة .. و قاسية
علي كقسوة الريح
أحاطت هالة الشهداء و الأيتام عينيك
عبرت مليئة بالدمع في خفر
ضبابا مثقلا في غابة الشوح
دموعك ملء خطوك ملء خديك
.... (2)

هكذا تتلاشى حدود العلاقة بين الفتاة اليتيمة الباكية الغريبة والمسبية، أمام صورة المدينة التي ترزح تحت نير الغزو الصهيوني في هذا المقطع الشعري، فتغدو المرأة هنا رمزا لمدينة القنيطرة، أرض أولئك الذين دافعوا عن شرفها و استشهدوا في سبيلها ، تاركين إياها يتيمة ترسف في أغلال العبودية، وتمارس مع أهلها الباقين الظلم و الاستعباد.

و يتكئ ممدوح عدوان في هذا المقطع الشعري على الفعل الماضي الذي يطغى لأنه يستعير لحظة ماضية للدلالة على قسوة الحاضر (عبرت – كنت – أحاطت – حقنت – حصلت – جئت ...) .

و تجر الذكرى الشاعر إليها جرا، حينما يخاطب المدينة الحبيبة، فيقارن بين ماضيها الزاهي – قبل الغزو – و حاضرها المشؤوم – بعده - :

أيا ماض تعتق ذكريات ..
و انتهى رعبا
هنا كنا ندوس على الطريق ..
و لا يرى من خطونا أثر
و لكن الطريق يظل كالحبلى :

يموج بنا .. و ينتظر
و نحن نموت .. و الأضواء تحتضر
و أنت كدمعة تسرين حائرة بلا حد
أود .. أود .. لو نزلت على زندي
.....(3)

إن الشاعر يعاني – هنا – من وضع مدينته القنيطرة ؛ ولذلك فهو لا يستطيع الإفلات من هذه الصور القاتمة الكئيبة التي يرسمها لحبيبته : (المدينة) وهو لا يقوى على فعل أي شيء سوى إدانة الذات و تأنيبها، إلا أنه يحاول اختراق غشاوة الكآبة هذه :

أرطب من نداك جفاف أحلامي
وأحميها .. لتصمد إن لقت حرا
وتولد منك ألامي رؤى مشدودة سمرا
تضوي درب من وسط الدجى عبروا
ومن كنا بكيناهم
وننهض وحدنا
وعلى الجراح نقوم نتكئ
ونبتدئ.... (4)

إن عدوان لا يقنع من مدينة (القنيطرة هنا) ببقائه متفرجا خارجها ، أو مبهورا بوجهها المادي، بل إنه يتحدث عن المدينة من داخلها، و انطلاقا من تجربة الحياة فيها، فهي تمثل في نظره الوجه السياسي للأمة العربية جمعاء.

لقد احتلت المدينة عنده مكانها في فترة مبكرة من وعيه الشعري، و من ثم فإن رحلته من البادية إلى المدينة إنما هي رمز لعبور تجربة الشاعر من بيئة " ساكنة " إلى بيئة " متحركة "، و من بيئة "بسيطة" إلى بيئة " مركبة " و من بيئة " مؤنسة " إلى بيئة " موحشة " :

دعاني من جفاف الوهم صوتك مترعا نسغا
فجئت إليك :
ملء عظامي الصفراء أرصفة
و في عيني يحترق الهوى مبغى
أتيت معبأ بنعاس أجيال
بوجه معسته سنابك الصخب

و خلف جفوني الصفراء أوردة
حرقت يباسها تبغا
قضيت العمر في الأوحال،
في كرم بلا عنب
أصارع أمسي الجائع
نسيت لديك أمالي... (5)

لقد بدأ الإحساس بالضياع عندما رمت المدينة الشاعر في طريق التيه الذي يؤلب عليه الحزن الداخلي و الضغط المادي الخارجي، ثم الإحساس الفاجع بالوحشة. ومن هنا ترتبط صورة المدينة لديه بالقلق الدائم، وبالأمل الضائع وبالقهر الروحي والمادي وبمراحل العمر الخاوية التي تنتقل ضائعة من جدب إلى جدب :

أتيتك تائها مضنى
ظننت الأمر وقفة ضيف
فأغرقني الجنون بظلك اللبق
و كل عزائمي أضحت سحائب صيف
فإن أصرخ بك ابتسمي
و صوتي بعدها سيذوب
و إن أصفق ورائي الباب في نزق
فلا تثقي
لأن الحب ما أبقى لدي دروب. (6)

هكذا إذن، يصطدم الشاعر بواقع المدينة المر، الشيء الذي يدفعه إلى إحساس عميق باليأس والضياع والتعب، لأن المدينة أصبحت معادلا للقهر و الخوف و العذاب الذي لا ينتهي:

يقول في قصيدة بعنوان : " الأغنية الثالثة " :

أتيتك مترعا ..
فرجعت أجوف كالمياه سرت بغير قرار
أضعت لديك أحزاني
و عدت محملا بالرعب و التعب،
ففي عينيك، خلف الصمت.... (7)

و يتكرر تشخيص ممدوح عدوان النسوي لمدينة " القنيطرة " في ديوانه الثاني :" تلويحة الأيدي المتعبة "، و يمتاز تشخيصه لها بروح شعرية عالية، و قد خصص لهذه المجموعة الشـــعـــريـــة مقدمة نثرية مشحونة بحبه لها، ورفضه لأي حب آخر، حيث يقول :

" أنا متعب وحزين، و أنت دائي المزمن، وجوه الناس اللامبالية تنكأ جراحي. لم أعد أدري ماذا أفعل بكل هذا الغضب و الحزن... لو أنني أستطيع التصرف، لعلقتك في أجفانهم، لجعلتك أرقهم الذي لا يهدأ. إنني أرحل معك كل ليلة. مرة عدت إلى البيت في الفجر. كان أهلي ينتظرونني بقلق. رأوا اصفراري فسألوني بلهفة :

- خير ؟ ماذا حدث ؟

- قلت : سقطت القنيطرة

كادوا يضحكون وهم يقولون لي : هذا حدث منذ عامين. " (8)

إن ارتباط ممدوح عدوان ب " القنيطرة " قد أخذ عليه نفسه ، فهي أرقه وداؤه المزمن، وهي ترحل معه حيث يرحل و قد حمل في صدره حبه لها كما يحمل الولد الصغير أعز ما لديه.

وتحتل التجربة العاطفية مكانا بارزا في رؤية ممدوح عدوان، إلى المدينة، إذ تحتل حيزا كبيرا في ديوانه الثاني، " تلويحة الأيدي المتعبة " وتأتي علاقته بها ضمن قصة حب يائسة لمشاعر عاطفية حادة تجتاح مجموعة من قصائده التي تمضي من خلال عنصر بشري يشار إليه ب " ضمير المخاطبة " مصورة مشاعر الخيبة والدمار والقهر والخوف والموت ... حتى تستقر عند صورة المدينة (مركز التحول وعنصر الربط في القصيدة) فتعقد مقارنة بين خيالات الحلم و حقائق الواقع.

وفي قصيدة : " تلويحة الأيدي المتعبة " إحساس قاتل بضياع المدينة التي أصبحت معادلة : للقهر والخوف والذل والوحدة، إنها تقف وحيدة والموت متربص بها بعد أن انصرف عنها أبناؤها، وهي تنظر إلى الشاعر وتلوح له، لكنه يتجاهل التلويح ويغض الطرف عنها، لأن المروءة والعزة والإباء خصال ماتت في نفسه :

تواعدنا و كان الوعد أن ألقاك في الصحراء
فجئت، و كانت الأضواء في عينيك ترتجف
و تبكي حرقة.. و أنا وراء النهر أرتجف
و صد خطاي عن لقياك فيض الماء
رأيتك تلعقين دماءك الحيرى
فكل شهودك انصرفوا
و ماتوا في ملاجئهم .. و ما عرفوا

و ما تركوا سوى الأشلاء
و وحدك كنت واقفة
و ما في الموت من شك لمن يقف

تنهدت الدروب و قد رأت دربي
يصد من ضفاف النهر
و أنت تكومين الرمل،
تختلسين نحوي نظرة خجلى بلا مقل
..... (9)

لقد هزمت المدينة إذن حين هزم فيها الإنسان، وهزيمته عميقة، إذ يراها ترسف في أغلال العبودية والقهر والذل، وهو لا يقوى على فعل أي شيء سوى الخوف والإطراق و الهروب :

أتيناك
أتينا راكضين إليك، كنا متعبين
ومغمسين بترف ذكراك
فلحت
وكنت ناشرة قميصك،
كي تثيري نخوة الفرسان
وفوق تلالنا أبى التفتنا
لوحت للركب كفاك
وهب الليل يحمل لفحة الأحزان
هربت ورفقتي رجلا
تحدثنا عن الطقس الرديء و موعد المزن
تحدثنا بهمس
لم يحدق واحد منا بوجه رفيقه... (10)

هكذا يتحول الفارس العربي، رمز النخوة و الإباء إلى إنسان حقير متخاذل وهارب لا يقوى على الدفاع عن عرضه – رغم ما تثيره فيه مدينته من نخوة و تلويحها له واستغاثتها به – إنه يوظف في هذا المقطع الشعري مفهوم العرض والشرف عند الإنسان العربي، ويتلخص في كون المرأة عرض الرجل وشرفه، وعلى كاهله يقع واجب صون هذا العرض من غزو الغرباء، فرمز الشرف عند المرأة يتجسد

في العفة والبكارة، وينتهي بدفع الرجال للدفاع عن هذا العرض حينما يكون مهددا، ودور المرأة في المعركة هو إثارة النخوة في الرجال.

و هكذا يتضح – من خلال تتبعنا لهذه المقطوعات الشعرية – أن ارتباط عدوان بمدينته هو بمثابة قدر يلاحقه و يحاصره في مجمل ما كتب من شعر، كما أنه يبعث في قصائده روائح ارتباط قدري لا مفر منه، وهذا ما يفسر شدة ارتباطه بمدينته " دمشق ". إن حنينه إليها يتوزع إلى كل جزء فيها، كل ما في دمشق قد غدا جزءا من كيانه، و تظل هي الأثيرة عنده بكل ما فيها :

كنت أعرف هذي المدينة،
كانت شوارعها تتأبطني في ليالي الضجر
وتواعدني في الغياب،
تكاتبني إذ يطول السفر
تشتكي لي، و تنقل بشرى
تذكرني بالزمان القديم
أتوهج شوقا
وحين أرى وجهها في اللقاء أبش
فتبتسم
.....
كنت أعرف هذي المدينة :
كانت دمشق. (11)

إلا أن دمشق هذه، هي المفجرة لعذابه الذي لا ينتهي، وأرقه المتواصل، وحزنه الذي لا محيد عنه، لأنها حوصرت و استبيحت وانهدمت واستنجدت، ولكن الشاعر عاجز لا يملك إلا أن يطلق زفراته وأساه :

ودمشق اتسعت حتى احتوت كل البكاء
ما الذي يفعله حين دمشق اتسعت ؟
ضيقت من حول عينه حصارا
.....
ما الذي يفعله حين دمشق اتسعت.. و انهدمت و استنجدت ؟
.....
ما الذي يفعله الآن إذا روادها الغزو

إذا أخجلها شاءت أن تداري الخزي
أن تطلب من يسمع منها لمدة القهر
وأوجاع النداء.....(12)

إن دمشق هنا عارية. وهي إذ تتعرى تظهر على حقيقتها بؤرة لكل ألوان الخسف والذل والبؤس والقهر، ومظاهر هذا القهر كثيرة :

تفرج معي
أهل هذي المدينة أهلي
وهم يتقنون الجنائز
حشد من الحزن و التعزيات
وحشد من الأحجيات ....

هكذا تصبح دمشق نقطة ارتكاز لهموم أبعد من كيانها المادي.

لقد حظيت المدينة بحيز كبير في متن ممدوح عدوان الشعري، و تعددت مواقفه منها – لأن تجربة الحياة فيها قد كشفت للشاعر عن مضمونها الحقيقي – لتبلغ به هذه المواقف إلى حد التناقض :

- ففي جانب : تظهر المدينة طاهرة، عفيفة، خالصة، عذراء، " معشوقة "ومبرأة من كل العيوب.
- وفي الجانب الآخر : تظهر مزيفة، مشوهة، ملفوظة، وملعونة.

ومن خلال هذين الموقفين المتباعدين إلى حد التناقض، تنبثق المدينة / الرمز التي تجسد بصفاتها معنى شاملا للوطن، و الحياة ذاتها.

وهي ترتبط في الجانب الأول : بالعاطفة الوطنية – والكفاح القومي وترتبط في الجانب الثاني: بالخيانة و الجبن و الذل و المسكنة.

وبذلك تكون المدينة قد فرضت نفسها على الشاعر باعتبارها أرضا ووطنا وتاريخا، ولذلك تعددت دلالتها بتعدد زاوية النظر إليها :

- فهي تارة : المرأة المعشوقة أو الأم الحنون البديلة لجفاء الواقع، تبث الدفء، وتنشر الحنان وتعيد التوازن المفقود لأن الشاعر يعتبرها طرفا في حوار يبادلها همه وحزنه ويأسه وحبه وكرهه وغضبه.

- وهي تارة أخرى : بؤرة للقبح و التشويه والفساد والاستكانة و الضيم والإحباط. وهنا بالذات يقع الارتداد من المدينة (الموضوع) إلى الذات (الشاعر)، حيث يتفجر اليأس و الحزن، ويتفرع في مجريات القصائد.

وبذلك يكون ممدوح عدوان قد جعل من المدينة / الوطن رمزا شعريا كاملا، و وعاءا تتزامن في داخله : قيم الماضي : و ذلك بالدفاع عنها و عشقها و الاعتداد بها. وقيم الحاضر : بإنكارها و تنكرها – معا –.

المدينة / الواقع / الحياة :

وهنا تبرز المدينة باعتبارها الصورة المجسمة لواقع الحياة، ولحقيقة الوجود الإنساني، و لذلك فالشاعر لا يخاطب المدينة من خلال رموز و إشارات توسع من دائرة الدلالة – كما كان عليه الحال في القصائد السابقة – ولكن يخاطبها على نحو مباشر، وعندئذ يزول عنها التشخيص النسوي لتعبر عن وجه الحياة المقزم الذميم، وهنا ترتفع نبرة الهجاء المطرد للمدينة، والسخط العرم عليها، وهي نبرة لها أكثر من مصدر.

المصدر الأول : مشاعر الوحدة والغربة نظرا لتنكر المدينة له رغم ما مارسه من تجارب في أحضانها، وتظهر هذه المشاعر حادة قوية رغم ما تعج به المدينة من حياة وصخب.

وسأقتصر فيما يلي على إيراد بعض النماذج الشعرية من مختلف دواوينه للدلالة على هذا المصدر الأول.

يقول في قصيدة : " هاجرت من عروبتها " :

كنت أعرف هدي المدينة
صوت بكاء أعزية
فرحة عمر أغني لديها
ديارا تكفكف مني اغترابي
وحضنا على صدرها أترعرع. ص 31

ومن قصيدة له بعنوان : " لابد من التفاصيل " يقول :

عشر سنين أضرب كالغارق في السيل أتخبط في الشارع
قدام الفترينات
أتابع خفقات الأضواء
أتشاجر مع حراس الليل
و أنضم لصف سكارى الليل
في كل مساء أتلاقى بالأصحاب
.....

ودمعي غال
تعلمت كيف استوى الدمع بالدم ص 6-7
وهذا نموذج آخر من قصيدة له بعنوان : " و لا تحسبن " إذ يقول :
ولا تحسبن أنني عاشق
غربتي الريح، و الأرض راكضة
أنا لست إلا غريبا
وغربته بدأت منذ أن صار للأبجدية معنى و معنى
وصار الشهيد الضحية
صار الرصاص علامة الموت وبدء زفاف. ص 107-108

هكذا أضحى الشاعر مغتربا في مدينته، متخبطا في شوارعها و على أرصفتها، و متكبدا مشاعر الحزن و العناء، باكيا بالدمع و الدم، و منضما لصف سكارى الليل.

المصدر الثاني : مشاعر خيبة الشاعر و إحباطه التي تنساب كالسيل في كثير من قصائده، و هي نتيجة لتجربة الحياة في المدينة و لحقيقة وجوده الإنساني بها، إنها تجربة الألم و العذاب التي لا تفارق الشارع إلفا لتسلمه لرثاء ذاته و الارتداد إلى عالم الطفولة، و سأقف على بعض المقاطع الشعرية من مختلف مجموعاته للدلالة على هذه التجربة.

يقول من قصيدة بعنوان : " هذا هو الحب إذن " معبرا عن تجربة الألم هذه، ومصورا مشاعر التيه و الضياع و ارتداده إلى عالم الطفولة :

وأنا في دمشق التي تمت فيها
وضيعت أمتعتي و غنائي
فقدت بضوضائها قدرتي أن أحب
وجرأة طفل على الضحك.(13)

ومن قصيدة : " زمن الجنائز الجميلة " يقول الشاعر :

وهذه الدروب تزوغ
دروب تدور.... (14)

وتبدو مشاعر خيبته هذه كأنها صورة لانقطاع العلاقة العاطفية بين الشاعر ومدينته. وانقطاع علاقته بها ما هو إلا نتيجة لفعالية المدينة التي أصبحت تدور " دورة معاكسة " لما كان ينتظره الشاعر منها، فاستبيحت حرمتها، و انتهكت كرامتها، و تماوت بذلك القصور التي بنيت من قبل على أساس

وهمي، و انهارت الأحلام، وشاع الإحباط المكبل للحرية، والمفجر لنبرة الحزن والأسى التي ترتفع باطراد في قصائد عدوان :

وعلى جفنيك يدعوني نداء
أخرس النبرة سحري الدعاء
وجهي المطلي بالأتعاب دام
كلما حاولت أن أخطو إليك
صدني صور زجاج
.....
غير أنني سأنادي
فلعلي اتخم الصوت دعاء
عل صوتا يقحم الأسوار يسري في الزجاج
يسحب الدهشة من وجهي إليك (15)

لقد كان الكشف كاملا، فانقشع الوهم نهائيا، ولذلك لم يبق أمام الشاعر سوى رد فعل أخير، إنه الصراخ.

إلا أن رد الفعل هذا جاء سلبيا وقاسيا على الشاعر، الشيء الذي يفسر نزعة الألم والمرارة التي أضحت جذرا مشتركا لمجموعة كبيرة من قصائده الشعرية :

وجهي المطلي بالأتعاب يهفو ليديك
عله يغفو لديك
متعب في صحبتي من ألف جيل
هائم كالريح من دنيا إلى دنيا وراء المستحيل
قطرة النوم ، إذا جاءته يغفو
مثل لص هارب يسمع أصوات الكلاب. (16)

لقد أصبح يحكم القصيدة معجم شعري يساعد على الإحساس بمشاعر الإحباط هاته، و لذلك تحملنا قصيدة عدوان إلى قلب الماضي الذي يصبح هو مجال التشكيل الشعري في القصيدة، رافضة الحاضر المؤلم بركيزة تساعد على توسيع مجال الرؤية و توليد أبعاد دلالية جديدة.

لقد انشطر الموقف بين الماضي – رمز النخوة و الإباء و الفروسية – و الحاضر – رمز الهزيمة النكراء، و الموت واليباس العربي – :

ذلك الماضي رأى عينيك في حلمي، فأجهشنا

و لكن لم يكن عندي دموع
حينما نفجع نحتاج لدمع..
نحن منذ البدء ، للدمع نجوع...
غير أن اليوم كالومض يولي
ليته يكفي لبحث و هروب و لذكرى و دموع
أه لو يمتد هذا اليوم ساعات لتكفي ذلك الماضي بكاء
ذلك الماضي رأى عينيك في حلمي .. فثار
شدني بين يديه
ثم طار. (17)

إن هذا الهروب إلى الماضي يبدو غير يقيني، لأنه نتيجة لمشاعر حادة من الحزن و اليأس و الألم، و لكنه يضع نقاء الماضي في مواجهة شوائب الحاضر، و لذلك تصطدم براءة الحلم بجهامة الواقع و انقشاع الوهم ، إلا أن إحباط الشاعر ليس مطلقا أو نهائيا.

الهوامش

1. من قصيدة "في الطريق" من ديوان : "الظل الأخضر" دار العودة بيروت : 1967 ص.37-38
2. نفسه ص. 38 – 39
3. نفسه ص. 40 -41
4. نفسه ص.42 – 43
5. من قصيدة "الأغنية الثانية" الظل الأخضر" ص. 101 – 103
6. نفسه ص.104 – 105
7. من قصيدة "الأغنية الثالثة" من "الظل الأخضر" ص. 107 – 108
8. "كلمات عاجلة إلى القنيطرة" ص. 13-14-15-16 بتصرف
9. من قصيدة "الأيدي المتعبة" من ديوان بنفس العنوان. ص. 37- 40
10. نفسه ص. 42 – 43
11. من قصيدة "هاجرت من عروبتها" ديوان: "الدماء تدق النوافذ" دار العودة بيروت – 1974 ص. 29-30-31
12. "مهرجان حمري للفقراء" من ديوان : "الدماء تدق النوافذ" ص. 73-74-75
13. من ديوان : "يألفونك فانفر" دار العودة بيروت 1976 ص.18-19
14. من ديوان: " للخوف كل الزمان" دار العودة بيروت 1982 ص.52
15. من ديوان: " الظل الأخضر" قصيدة "الجدران" ص.112
16. نفسه ص. 113-114
17. نفسه ص. 115-116